الاسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية لتدهور الفائض الانتاجي ٠

نجد تفسيرا للتدهور المتزايد لاوضاع الفلاحين في شرقي الاردن في العهد العثماني في الاجابة التي عرضها احد الفلاحين ردا على سؤال بيركهارت : « لماذا لا تزرعون ؟ » ٠ اجاب الفلاح : « نزرع لمن ، للاغراب ام للاعراب»؟ (١٤) ، ففي هذه الاجابة نجد تفسيرا للأفاق المغلقة لتطور القوى المنتجة في ظل التحكم ونظام الاستغلال العثماني ٠ وحتى لا نضطر للاسترسال في عرض الاوضاع الاقتصادية للريف في شرقي الاردن ابان الحكم العثماني نقتصر هاهنا على البحث عن مصائر توزيع الفائض بل وجانب كبير احيانا من توزيع الناتج الضروري ٠ وسوف نتجنب عرض الاشكال المختلفة من الضرائب وتطورها ٠

هناك اولا ذلك الحيز من الفائض الذي يقتطع لحساب الدولة ، بوصفها المالكة للارض ٠ واهم جزء فيه ما تعارف عليه السكان باسم «الميري» او «العشر» ، ويصف بيركهارت طريقة تحصيلها بقوله ان الفلاح يدفع كيسين من القمح عن كل خمسة افدنة ٠ وتدفعها القرية بالكامل كما هي مسجلة في دفاتر الباشا ، سواء بقي سكانها فيها ام هاجر بعضهم ، وعندها فان الباقين يدفعون المطلوب ، ويظهر التأثير المدمر للاقتطاعات العثمانية في ان الاراضي المشاعية للقرى كانت اكثر من الراغبين في فلاحتها ٠ وبكلمات اخرى كان هناك احجام عن زراعة الارض لضآلة الحيز الباقي للفلاح من ثمار عمله ٠ فالفلاح يدفع الميري نقدا او عينا حسبما يرغب الباشا ٠ ولما كانت الميري تقع على القرية بكاملها ، وبغض النظر عمن بقي فيها ، فان الفلاح لا يعرف مقدار الضريبة المفروضة عليه ٠ فيمكن ان تزداد الضريبة اذا زاد السكان في القرية ٠ لكنها لا تنقص مهما نقص عدد السكان (١٥) ٠

من الزراعة ٠ الذي يتسم بالزراعة المتقطعة والاعتماد الاكبر على رعي الماشية ٠ وفي القرن التاسع عشر وبعد قرون من الحكم العثماني اختفت الزراعة في بعض المناطق وتغيرت مجاري الانهار ليصب معظمها في البحر الميت ٠ راجع : مسح وادي الاردن ، دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، (بالانجليزية) ، ص ١٣٣ـ١٣٤ ٠ كذلك راجع : Neuson Glueck , The River Jordan New Haven , 1946 , P. 73.

(١٤) راجع بيركهارت : رحلات الى سورية والارض المقدسة ، ترجمة انور عرفات المعنونة بـ «رحلات بيركهارت : الجزء الثاني ، في سورية الجنوبية» (عمان ، ١٩٦٩) ، ص ٤٥ ٠

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ٠